مجلـــــــــــة

آداب الرافدين

علميّـــــة محكّمـــــة

فصليـــّـــة

تصـــدر عن كليـــة الآداب

العـــدد: الواحد والسبعون

السنة: السابعة والأربعون

الموصـــــــل

١٤٣٩هـ / ٢٠١٧م

الهيئة الاستشارية

- أ.د. وفاء عبد اللطيف عبد العالي – جامعة الموصل/ العراق (اللغة الإنكليزية)
- أ.د. جمعة حسين محمد البياتي – جامعة كركوك / العراق (اللغة العربية)
- أ.د. قيس حاتم هاني الجنابي – جامعة بابل/ العراق (تاريخ وحضارة)
- أ.د.حميد غافل الهاشمي – الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية/ لندن (علم الاجتماع)
- أ.د. رحاب فائز أحمد سيد – جامعة بني سويف / مصر (المعلومات والمكتبات)
- أ. خالد سالم إسماعيل – جامعة الموصل/ العراق (لغات عراقية قديمة)
- أ.م.د. علاء الدين احمد الغرايبة – جامعة الزيتونة/ الأردن (اللسانيات)
- أ.م.د. مصطفى علي دويدار – جامعة طيبة/ السعودية (التاريخ الإسلامي)
- أ.م.د. رقية بنت عبد الله بو سنان – جامعة الأمير عبدالقادر/ الجزائر (علوم الإعلام)

الأفكار الواردة في المجلة جميعاً تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com

آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: الواحد والسبعون — السنة: السابعة والأربعون

رئيس التحـــرير

أ.د. شفيق إبراهيم صالح الجبوري

سكرتير التحرير

أ.م.د.بشار أكرم جميل

هيئة التحرير

أ.د.محمود صالح إسماعيل	أ.د.عبد الرحمن أحمد عبدالرحمن
أ.د.مؤيد عباس عبد الحسن	أ.د.علي أحمد خضر المعـــماري
أ.م.د.سلطان جبر سلطان	أ.م.د. أحمد إبراهيم خضر اللهيبي
أ.م.د. زياد كمال مصطفى	أ.م. قتيبة شهاب احمد

المتابعة والتقويم اللغوي

م.د.شيبان أديب رمضان الشيباني	– مدير هيئة التحرير
أ.م.أسامة حميد إبراهيم	– مقوّم لغوي/ لغة الإنكليزية
م.د. خالد حازم عيدان	– مقوّم لغوي/ لغة عربية
م. مترجم.إيمان جرجيس أَميـــــن	– إدارة المتابعـــــة
م. مترجم.نجلاء أَحمد حســـين	– إدارة المتابعـــــة
م.مبرمج. أحمد إحسان عبدالغني	– مسؤول النشر الإلكتروني

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار.
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة.

((هيئة التحرير))

المحتويـــــــــات

العنـوان	الصفحة
المنظومة الدُّرِيّة بمدح سيِّد البريَّة ليوسف بن عبد الله العمريّ (ت بعد ١٢٤٠ هـ) تحقيق ودراسة أ.د. أحمد حسين محمد الساداني	١ - ٣٤
العلاقات الاسنادية وأثرها في التشكيل الاستعاري النص القرآني أنموذجاً أ.د. محمد ذنون يونس فتحي	٣٥ - ٥٦
الظواهر اللهجية النحوية في الحديث الشريف دراسة في كتاب : شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) أ.م.د . أحمد صالح يونس محمد	٥٧ - ٧٨
رؤية المستشرق الأسباني أنغيل بلَنثيا في التراث المورسيكي أ.م.د. فارس عزيز حمودي	٧٩ - ١٠٨
-العلاج والاستقرار- في كتاب سيبويه م.د. مجاهد عبدالمنعم أحمد سامي	١٠٩ - ١٣٠
تجليات العنوان في متن القصيدة (البيت) أنموذجا للشاعرة بشرى البستاني م.د.إخلاص محمود عبدالله	١٣١ - ١٤٦
الشكوى في شعر سبط ابن التعاويذي (ت ٥٨٣هـ) م.د. فارس ياسين محمد الحمداني	١٤٧ -١٨٠
مُقدمةُ القصيدةِ عند راجح بن إسماعيل الحلّي م.د. مقداد خليل الخاتوني	١٨١ -٢١٢
المؤلفات الموضوعة على صحيح البخاري في المشرق مؤلفوها ومضامينها في القرن الخامس الهجري أ.م.د.محمد عبد الله احمد المولى	٢١٣ - ٢٣٨
الصراع بين الإمارتين القراخانية والسامانية للسيطرة على بلاد ماوراء النهر (٣١٥-٣٩٥هـ/٩٢٧-١٠٠٤م) أ.م.د.حسين إبراهيم محمد	٢٣٩ -٢٧٠
العلاقات العراقية – اليمنية (١٩٨٠ – ١٩٩٠) أ.م.د. قيس فاضل محمد النعيمي	٢٧١ - ٢٩٦
مرويات عفان بن مسلم عن السيرة النبوية في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد أ.م.د. محمد علي صالح	٢٩٧ - ٣٢٦
فقهاء دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي أ.م.د. مصعب حمادي نجم الزيدي	٣٢٧ - ٣٥٤
فكرة المهدوية وتوظيفاتها السياسية عند أبن تومرت أ.م.د. عائدة محمد عبيد	٣٥٥ -٣٨٨

عبد الرحمن عزام وقضية التحرر الليبي ١٩١١_١٩٥١ م.د.صفوان ناظم داؤد	٣٨٩- ٤١٦
الموصل من خلال كتاب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبي حامد الغرناطي م.د.مها سعيد حميد	٤١٧- ٤٣٢
حركة منصور بن نصير الطنبذي وتداعيتاتها في المغرب سنة ٢٠٩هـ / ٨٢٤ م م.د. أحلام صالح وهب	٤٣٣ – ٤٤٢
الغزو التجاري للأحياء السكنية دراسة ميدانية في مدينة الموصل أ.م.نادية صباح محمود	٤٤٣ – ٤٦٤
ثقافة الفساد الاداري في العراق أ.م.د. رباح مجيد محمد الهيتي	٤٦٥ - ٥٨٤
ثقافة الانترنت من منظور اجتماعي دراسة اجتماعية تحليلية م.م. ايناس محمود عبد الله	٥٨٥ - ٦١٠
الجدوى الاقتصادية للمكتبات العامة في العراق دراسة مسحية أم.سمير مدحت سعيد	٦١١ - ٦٤٢

الشكوى في شعر سبط ابن التعاويذي (ت ٥٨٣هـ)

م.د. فارس ياسين محمد الحمداني *

تأريخ التقديم:٢٠١٤/٣/٢ تأريخ القبول:٢٠١٤/٤/٢

الشكوى (موضوعاً شعريًا):

الشكوى حالة انفعالية تجاه مثير معين , أو عدة مثيرات , تصيب النفس المرهفة بالقلق والتوتر , وإذا صنفنا حركات القصيدة الانفعالية والنفسية إلى: حركة وجدانية تمثل حالة الانكفاء الذاتي التي تتقمصها النفس الشاعرة , وحركة وصفية قوامها القدرة الكامنة في اللغة , ثم حركة قيمية ترتكز على إنتاج الذات الشاعرة للقيم[١] , فإننا نجد الشكوى عند (سبط ابن التعاويذي) متعددة , مادية أو اجتماعية أو معنوية .

وتدور المعاني المعجمية للشكوى حول التنفيس عما بداخل النفس , وحول كل ما يؤذي الإنسان ويكرهه , ومن معانيها المرض نفسه. [٢] والشكوى بوصفها موضوعاً شعريًا ومصطلحاً أدبياً تعني التوجع من شيء تنوء به النفس كالمرض والشيخوخة والغدر والظلم والفقر وغيرها من المظاهر التي يتعرض لها الشخص فتكدر عليه صفو حياته , ويشعر إزاءها بالهموم وشدة اليأس[٣] .

يرى د. قحطان رشيد التميمي أن الشكوى (وليدة الحرمان والظلم الاجتماعي والسياسي وانعدام حياة العدل والمساواة والشعور بالحيف وعدم الوفاء , وهي بعد ذلك

---

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

[١] ينظر : بحث بعنوان (الشكوى في شعر ابن نباته) , د. وئام محمد سيد احمد أنس , مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها , العدد١, محرم ١٤٣٠ هـ / يناير ٢٠٠٩ م , ص ٢١٤ .

[٢] ينظر : القاموس المحيط , مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي , رتبه ووثقه : خليل مأمون شيحا , دار المعرفة , بيروت , ط٤ , ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م / ص٧٠٢ .

[٣] ينظر : الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري , ظافر عبد الله علي الشهري , أطروحة دكتوراه , جامعة أم القرى , كلية اللغة العربية , بإشراف : أ.د. إبراهيم احمد الحاردلي , ١٤١٠هـ – ١٤١١هـ / ١٩٨٩م–١٩٩٠م/ص٤ .

صرخة للعواطف المحرومة ومظهر الاضطراب النفسي والتشاؤم) [١] وتتجلى فيما يبثه صاحب الشكوى إلى الآخرين من المعاناة , التي تعكس لنا خوف الشاكي من الإخفاق في تكوين علاقات متوازنة مع الواقع , و تكون بسبب وجود خلل ما في المجتمع , وما يطرأ على العلاقات الإنسانية الرفيعة من الانحراف أحياناً .

ويركز شعر الشكوى على الشعور الداخلي الذي يصيب المرء , نتيجة المؤثرات الحياتية المتضادة مع رغبات النفس, وتكمن الشكوى في (إظهار ما يكابده المرء من الم نفسي , أو جسدي ناتج عن الظلم, أو القهر , وسيطرة قوى خارجة عن إرادته ما يقف عاجزاً , لا يستطيع له رداً)[٢], وقد تكون الشكوى (صرخة العواطف المحرومة الخائبة , ومظهراً للاضطراب النفسي والتشاؤم الذاتي) [٣], ونعتقد أن هذين التعريفين قد تجاوزا مسألة الشعور بالألم إلى إبرازه أمام الآخر , في محاولةٍ من النفس الشاكية لخوض تجربة مختلفة تخرج من الشعور إلى الشعر ومن الذات إلى الموضوع .

والشكوى في مضمونها , تعبير ذاتي عن هموم الإنسان الناتجة عمّا يعرض له من مشكلات الحياة الخاصة والعامة التي تواجهه عندما تشتد وتتعقد , ويفقد السيطرة عليها , فتحيطه الهموم من كل جهة , عند ذلك ينفجر بالشكوى مصوراً مشكلته بالشعر , وأحياناً تتسع دائرتها فتتحول من الأفراد إلى المجتمع بأسره , وهنا يأخذ الشاعر مكانته , ويحدد موقعه المناسب الذي تضعه فيه قدرته على التعبير , ويسعى وراء بريق الأمل الذي يمكن معه تجاوز ذلك الواقع السيئ الذي يعيشه , والسيطرة على أسباب همومه المختلفة , وكشف قضاياه أمام الآخرين , وأمام نفسه حينما يفصح في شكواه عما ينتابه من ألم وحرمان ؛ فيثور لذلك معبراً عما يريده [٤].

---

[١] بحثه بعنوان (الشكوى في الشعر الجاهلي) مجلة كلية الآداب, بغداد العدد ١٣ , ١٩٧٠ , ص١٣٩ .

[٢] (الشكوى من المرأة في شعر الأحوص الأنصاري): د. عبد الكريم يعقوب , وعلي عبد الله , مجلة جامعة تشرين , المجلد ٢٣ , العدد ١٦ , لسنة ٢٠٠١ , ص١٤٢ .

[٣] الشكوى في الشعر الجاهلي , ص١٣٩ .

[٤] ينظر : الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث / ص٥-٦ .

وللشكوى مثيرات عديدة أهمها (القلق) الذي يدور حول الاضطراب والانزعاج وعدم الاستقرار, والقلق من الناحية السيكولوجية هو (حالة من الخوف الغامض الشديد الذي يتملك الإنسان , ويسبب له كثيراً من الكدر , والضيق والألم) [١], وله بواعث عديدة : منها عوامل وراثية وعوامل بيولوجية وعوامل نفسية وسلوكية واجتماعية ... , وعلى هذا الأساس يمثل شعر الشكوى ثورة النفس على البواعث والمؤثرات وبداية خروج الإنسان من الضيق إلى المواجهة الحقيقية مع الجوانب السلبية , فيرفع صوته بالشكوى للتخفيف من همومه وما يثقل كاهله من مشكلات الحياة , وتصوير واقعه الذي يحيطه بسياج من المعاناة النفسية , فيتجه إلى الإفصاح عمّا يشعر به , فينطق بكل جرأة ووضوح تجاه ما يعانيه من حالات الاضطراب ومظاهر القلق , وبذلك يُظهر لنا شعر الشكوى خلجات الإنسان / الشاعر في المجتمع ومنه .

الشكوى من نوائب الزمان:

الشكوى من نوائب الزمان و مظالمه , ظاهرة اجتماعية تستحق الدراسة , فهي تعبير رمزي عن عجز الإنسان عن تحمل الأعباء , إذ يضيق بها ذرعاً ولم يجد في صدره القدرة على الاحتفاظ بها طويلاً , فيشكو الشاعر من الألم إذا صار خارجاً عن حدود التصور والمعقول ؛ لأنه تعبير عن امتلاء زمانه بالمظالم , مما يسبب قلق الشاعر عما يحيط به , فالزمان (الذي يندرج تحت هذا النوع من القلق قسمان: زمن واقعي , وزمن كوني "الدهر")[٢], فالواقعي: هو الوقت وهو حركة التاريخ سواء بالماضي أو الحاضر أو المستقبل , لكن الزمان في تصور الشاعر: هو الحضور منبثقاً من المستقبل ومتلاشياً من الماضي , وهو في الوقت نفسه الواقع الإنساني متجاوزاً ذاته , مستجداً في كيفيات متعاقبة متجددة , والزمان عند الشاعر لا يقتصر على تحديد ساعات الليل والنهار أو مصطلحي الزمان والدهر فحسب, وإنّما هو(الدنيا في شموليتها للكون والطبيعة

---

[١] القلق, فرويد , ترجمة : د. محمد عثمان نجاتي, دار النهضة العربية , القاهرة, ط٢, ١٩٦٢, ص٣ .
[٢] الشكوى في شعر ابن نباته / ص٢٣٩ .

والإنسان وكل الكائنات سواء ما عرفه بحواسه وبخبرته العلمية التطبيقية , أم أدركه بفكره أم تصوره بخياله , أم باطن وجوده بمشاعره...) [١].

فالزمن في تصور الشاعر هو القاضي الذي يحكم بين الناس وهو الحافظ لحرياتهم , والراعي لحقوقهم , فنجد (ابن التعاويذي) يشكو من الزمن ومن أيامه التي عطّلت شؤونه , يقول[٢]: (بحر الطويل)

جَـفَـاءٌ مِنَ الأيـّامِ بَـعْدَ مَوَدةٍ وسَـلْبٌ مِـن الأيّـامِ غَـبَّ عَطَـاءِ

تَنَكّـرت الـدُنيا علـيَّ فَفوَقـتْ إلـيّ سِـهامَ الغَـدرِ بَعْـدَ وَفَـاءِ

فأضْـحَتْ وقَـدْ كانَـتْ إلـي حبيبـةً وأبغـضُ مـا فيهـا إلـيّ بقـائي

وأعْهـدُها سـلمي ويـارُبَّ زَعْـزَعٍ جَـرَتْ مـن مَهَبّـي سحسـح ورُخـاءِ[٣]

وهـا أنـا كـالمقبُورِ فـي كِسرِ منـزلٍ سـواءٌ صـباحي عِنْـدهُ ومسـائي

يـرقُّ ويبكـي حاسـدي لـيَ رحْمـةً وبُعـداً لهـا مـن رقَّـةٍ وبُكَـاءِ

يبدو قلق الشاعر وشكواه من الزمان الذي عدّه القوة المتحكمة في كل شيء , والذي منعه من رؤية المستقبل والتنبؤ به , إذ تميز هذا النص بخاصية ترتبط بالألم والوجع

---

[١] (مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية) , صفوت كمال , مجلة عالم الفكر , المجلد٨ , العدد٢ , يونيو– أغسطس– سبتمبر , ١٩٧٧ , ص٥١٦ .

[٢] ديوان سبط ابن التعاويذي ، تحقيق : د.س. مرجليوث ، مطبعة المقتطف، مصر،١٩٠٣/ ص٧ .

[٣] سحسح: الشديد من المطر , وعين سحاحة: صبابة للدمع , القاموس المحيط / ص٥٩٧ .

والصراع والقلق الذاتي الذي يظهر لنا جليًّا من خلال ذاته (عليّ , إليّ) وإظهار جزعه وشكواه إلى المتلقي , فالشاعر يروم إقناعنا بنظريته وهي (عدائية الأيام له) , وهو لا يملك من العدة والعتاد سوى القول والشكاية , فالأيام جفته ولم تترك أيّ اثر له بعد أن كانت تدر عليه بكل ما يشتهيه , وأظهرت الكراهية له بعد المودة التي كانت بينهما , فقد جعل الشاعر من (الأيام) كائناً حيّا يغدر بصاحبه بعد مودة طويلة , فقد سلبته العطايا التي كانت عنده , وقست عليه وأهملته , وأعرضت عنه وعاملته بالقطيعة , ثم تنكرت له , وأصابته بسهام الغدر والخيانة بعد أن كانت تعامله بالوفاء مدةً , فتغير وجه الدنيا عليه بعد أن كان بوفاق دائم معها , ثم صار يبكي منها حتى صارت دموعه كالمطر الشديد المتتابع الذي يقشر وجه الأرض , ثم يعود الشاعر ليشبِّه نفسه بالميت في زاوية من زوايا المنزل وهو لا يقوى على الحركة , فصارت الدنيا ضيقة في عينه , مستخدماً لغة التضاد بين (الصباح والمساء) ليُظهر لنا توجعه وآلامه من هذه الدنيا / الزمان , فيتصارع الضدان (الصباح والمساء) في هذا النص حتى تتراكم طياتهما , فيقيم الشاعر عن طريقهما العلاقة الطردية, ووفقاً لهذه العلاقة تولد يأسه من الأيام , فالصباح والمساء يولِّدان حالة واحدة للشاعر هي الحنين والتذكر إلى سالف الأيام , كما نرى لغة التضاد أكثر من مرة ضمن النص (جفاء– مودة , سلب – عطاء , صباح – مساء) , فالشاعر يريد بهذه اللغة أن يعطينا صورة مأساوية عن حزنه وتفجعه من قساوة الزمن , إذ بنيت القصيدة على أسلوب التضاد الذي تحكم في أنساقها التركيبية والدلالية , مما ولد شحنات عاطفية كبيرة عند الشاعر باعتماده أسلوب التراكم الدلالي للمتضادات الفرعية داخل نسيج القصيدة , ثم يصور الشاعر قساوة الزمان معه حتى صار حساده ومبغِضوه يبكون عليه رحمةً وشفقةً فكان للعامل الاجتماعي تأثير كبير وراء ما يقوله الشاعر بسبب الحرمان والظلم الذي يعيشه , وعدم تقدير الأيام له وعدم الوفاء معه , فكل ذلك ترك أثراً نفسيًّا سلبيًّا عند الشاعر.

ويشكو (ابن التعاويذي) , إلى احد أصدقائه من جور الزمان عليه , ويقول [١]: (بحر الوافر)

وأسَــلَمني الزَّمــانُ إلــى هُمــومٍ يَشــيبُ لِحَمْــلِ أيْســرِها الغُــرابُ

وألجــأني إلــى اســتعطافِ جــانٍ أعاتبُــــهُ فَيُغريــــهِ العِتــــابُ

إلــى كــم تَمْضــغُ الأيّــامُ لحمــي وَيعرقُنِــي لــــه ظُفُــرٌ ونــــابُ

تُقــــارِعنُي خُطُــوبٌ صَــادِقَاتٌ وتَخْــدعني مواعيــدٌ كِــذَابُ

كــأن الأرض مــا اتســعت لســاعٍ مَناكبُهــا ولا لِلــرّزْقِ بــابُ

أفِــق يــا دهْــرُ مــن إدمــانِ ظُلْمــي وإغْنــاتي فَقَــدْ حَلِــمَ الإهــابُ[٢]

تتصاعد وتيرة الفاجعة التي ألمت بالشاعر نتيجة إعراض الزمان عنه , فصدق العاطفة عند (ابن التعاويذي) مكنه في شكواه من إيصال المعنى إلى المتلقي ,فهو يشكو من الزمان الذي أغرقه بالهموم والرزايا والمصائب , التي لا يستطيع حملها , فصور لنا ثقل تلك الهموم بأسلوبٍ شعري كنائي , إذ أن اصغر همومه ومصائبه يصعب على الآخرين تحملها , فشبه حمل تلك المصائب والهموم بتغيير لون الغراب إلى الأبيض

---

[١] الديوان / ص٣٧ .

[٢] حَلِمَ: دودة تقع في الجلد فتأكله , القاموس المحيط / ص٣١٦ , الإهاب: الجلد , القاموس المحيط , ص٦٧ .

(يشيب الغراب) دلالةً على العجز و التعجيز عن حمل الهموم الثقيلة ؛ فامتلك النص تصويراً كنائيًّا عن الاستحالة والتعجيز والتيئيس, فأفاد الاستحالة من حصول الشيء , وانه ليس من المعقول أن نجد غراباً ابيض , والملاحظ استخدام الشاعر في البداية لأفعال (أسلمني , ألجأني) دلالة على الحركة والتسارع مما يدّلُ على الاضطراب النفسي داخل ذات الشاعر وهو يبث شكواه من قساوة الزمان إلى من يسمعه , فكانت شكواه حاجة نفسية ملحة , فعن طريقها يحاول الشاعر التخفيف من الألم وثقل الهموم بما يطلقه من صيحات التشكي , فتتجلى فيها ذاته ويكشف عن معاناته وينفث ما في صدره من الألم الذي لم يعد بوسعه أن يتحمله أو يصبر عليه , فقد ألجأته الأيام القاسية إلى أن يستجير بمن لا يحبه أو يستعطفه , فهو يشبه الأيام بالكائن الحي المستوحش –بأسلوب التشخيص – الذي ينهش لحمه ، ولا يُظهرُ له عطفاً أو رحمة فشبه أيامه العصيبة المثقلة بالهموم والمصائب بحيوان مفترس له ظفر وناب يقطع لحمه ويمضغه دون شفقة , فصارت للنص فاعلية أكثر بوجود (التشخيص) داخله , فبالصورة كمّل الشاعر أركان التشكيل الباث للشكوى وخضعت لهندسة مبيتة من الشاعر خدمة لمقاصده , فالأيام تقارعه في شؤون عظام , وتصيبه بدواهٍ وفجائع كثيرة وكبيرة لا يستطيع تحملها بغير المشقة , إذ واعدته بالفرج لكنها لم تحقق مساعيه , ثم يعيد التشبيه بـ (كأن) فيجعل الأرض تضيق عليه بما رحبت , فلا يجد فيها مكاناً له ولا باباً لرزقه , إذ ينادي الدهر (أفِق يا دهر) وكأنه إنسان يسمعه ليفيق من طول أيامه المليئة بالمصائب وشدة وقعها عليه , فشبه مكوثه بالظلم بالإنسان الذي وقع الدود في جلده فتآكل على مر الزمان وطوله , فرؤية الشاعر للزمن تمتد لترى فيه الترصد والعدائية والتسلط عليه , فأصبح (زمنه ودهره) يضع العراقيل في طريق آماله وأحلامه , فهو يحمل الدهر مسؤولية ما يحدث له , دون تقصٍّ لأسباب ذلك أو محاولة حل ما يصادفه من أمور .

ونقف عند نص آخر (لسبط ابن التعاويذي) يبث لنا فيه شكواه من دهرٍ أثقله بالهموم والبلاء[١]: (بحر المتقارب)

[١] الديوان / ص ١٣٩–١٤٠ .

وَيُوســـــعِنُي الَّـــــدهْرُ ظُلمـــــاً وَلاَ أُعَـــــــانُ عَلَيـــــــهِ وَلاَ أُنَجـــــــدُ

زَمَـــــانٌ يُخُنّقنـــــــي صَـــــرْفُهُ كـــــــأنَّ حَوَادِثـــــــهُ مِبْـــــــرَدُ[١]

أمـــــا يَنتْبـــــه لـــــيَ مِـــــنكُم كـــــريمٌ فَيُســـــــعِفني فيـــــــهِ أو يُسْـــــــعِدُ

ســـــأحتقبُ الصَّـــــبرَ مُســـــتأنياً لَعَـــــــلّ عواقبـــــــهُ تُحْمَـــــــدُ[٢]

تلتهب الشكوى وجداً ولوعةً داخل النفس فيتجه الشاعر بشعره إلى أن يخرجها من صدره بعد أن أحرقت فؤاده , وقد استخدم (ابن التعاويذي) لفظة (الدهر) للزمن الطويل في معاناته به , والدهر بهذا المنظور على الشاعر لم يعد عنصراً محايداً في حياته بل صار نقمة وبلاءً عليه , فالدهر/ الزمان يترك آثاراً سلبية عند الشاعر نتيجة ما يعانيه من آلامٍ وأحزانٍ (فالزمان تقترن به الهموم الذهنية , بعكس المكان الذي ترتبط به الهموم الحسية) [٣] , فالشكوى عند (ابن التعاويذي) ذاتية انفعالية تصدر عن نفس قلقة ماديًّا ومعنويًّا , وعن وجدان مفعم بتقلبات زمنية , فهو يطلب مَنْ يعينه على صروف الزمن ومصائبه التي توالت عليه , ثم يكرر (الزمن) ليؤكد استمرارية وقوع الظلم عليه , ويشبه حوادث الدهر عليه بالآلة الحديدية الحادة التي تقطع جسده (كأن حوادثه مبِردُ) ويزيد إلحاحاً بالطلب بأن يعينه أحدٌ على التخلص من الظلم الواقع عليه فيسعفه أو ينجده , ويعود ليمني نفسه بالصبر حتى يجد التخلص من مكائد الدهر وتسلطه عليه , فالدهر – بحسب نظر الشاعر – قد تجاوز طاقته وإدراكه , فصار يعيش تحت وطأته

---

[١] مِبرَدُ: ألة تحدُ بها المعادن , القاموس المحيط / ص٩٢ .

[٢] أحتقب: أله تحدُ بها المعادن , القاموس المحيط / ص٣٦

[٣] ظاهرة الشكوى في شعر هذيل , بتول حمدي البستاني . رسالة ماجستير , كلية الآداب , جامعة الموصل , ١٩٨٧م , ص٥٧ .

وسلطته , فكانت شكواه تعبيراً ذاتياً عن همومه الناتجة عن مشكلات الحياة التي واجهته , فأحاطته الهموم, وانفجر بالشكوى مصوراً للآخرين مشاكله , فهو يكشف قضيته حينما يفصح في شكواه عما ينتابه من ألم وحرمان فيثور سخطاً ويحترق أسىً ومرارةً لما هو عليه , وهو يحاول ادّخار صبره لما ستؤول إليه أمور زمانه ودهره , لعّله يجد مخرجاً ومتنفساً من كثرة النوائب عليه, فاضت ثورتها على لسانه شعراً يقطر أسى ولوعةً.

ونقف في موضع آخر (لابن التعاويذي) , يشكو فيه الزمان الذي سلب منه ابنه , فيقول[1]: (بحر الكامل)

فـــي كُـــلّ يـــومٍ مِنـــكَ يَـــا دهْـــرُ فـــــبِمَنْ أحِـــــبُّ رزيئـــــةٌ نُكْـــــرُ

صَـــــدَعَتْ فُـــؤادي مِنْـــكَ نائبـــةٌ مِـــنْ دَونِهـــا ماصُـــدِعَ الصَّـــخْرُ

وَغَـــدْرتَ حتّـــى صَـــار يَهْجُرُنـــي مَـــنْ لـــمْ يكُـــنْ خُلقـــاً لـــهُ الهجـــرُ

وسَـــلَبْتني مَـــنْ لَـــيسَ لـــي جلـــدٌ فيـــــهِ يُســـــاعِدُني وَلاصَـــــبْرُ

يبعث الشاعر في الشكوى لواعج النفس وآلامها وأحزانها, فالشكوى منطلق القصيدة , وقد وضحت معاناة الشاعر حينما رثى ابنه وعاتب الزمان الذي أخذه منه وقسا عليه , فنصّه يؤكد أن الدهر يبدل الأحوال من حالٍ إلى حال – حسب رأيه – فأخذ يذكرنا بحاله بعد فراق ابنه إذ تصدّع قلبه وانفطر من شدة الرزايا والنوائب بفقدان الابن حتى اخذ يعاتب الزمن لان اغلب أهله وأصحابه قد هجره مع العلم أن أخلاقهم ليست كذلك (من لم يكن خلقاً له الهجر) ففي هذا النص من الشكوى من فراق الأبناء جوانب نفسية بليغة

[1] الديوان / ص ٢١٠ .

فكانت الشكوى دموع ألم وتنهيدة حسرة وفجيعة على فقد الابن , فقد صُدِم الشاعر بفقد ولده بعد أن اختطفه الموت , فامتلأت نفسه ببحار الحزن وفاضت دموعه أسفاً وحسرةً , واخذ يعاتب الزمن الذي سلبه ابنه , ولعّل اختيار الشاعر لمفرداته , قد شكل المعاناة التي تؤرقّه (صدعت فؤادي , غدرت , سلبتني) فهي طبيعة اضطرارية يتحملها الشاعر على مضض , فكأن الشاعر يكرس صيحاته ليعبر عما في نفسه من الم ووجع فهي حركة وصفية وجدانية لما يعانيه , وهي حالة الانكفاء الذاتي على نفسه في محاولة منه لإخراج مكنوناتها المخزونة ومشاعره المحتبسة تجاه عالمه الخارجي , فهي لحظة انفعال مع الواقع , يجسد فيها هيمنة الذات على الموقف الشعري , وتهدف إلى الإفضاء الذي يتميز بالصدق والتأثير في الآخر / المتلقي , فتركزت القصيدة على المحور الذاتي , فقد سلبه الزمن اعز ما يملكه لمواجهة الصعاب والأهوال والمصائب , وتضاءلت قدرته على تحملها إذ نجد تحول كلام الشاعر من مداره الإنساني إلى مواجهة خصم آخر هو الدهر / الذي يعده الشاعر قوة لا مرئية متسلطة عليه , أساسها كثرة الظلم والتسلط عليه , وهو يشكو منها لمن سمعه , فيحاول بقوة إرادته و حضوره في الحياة الوقوف بثبات أمام الدهر وصروفه , فالزمان واقف وقفة قاتلة أمام مطامح الشاعر التي تملأ نفسه, , والحزن له ارتباط عميق ومباشر مع الشكوى , وأهم ما يميز العاطفة في شعر الشكوى صدقها الخالص .

الشكوى من المرض:

المرض حالة جسدية أو ذهنية تصيب الإنسان , وتؤدي به إلى التوجع والتشكي منه لما يسببه له من معاناة تجعله يتوجه إلى الآخر لينقذه وينجده مما فيه , ويعد العجز والشيخوخة وما يصاحبهما من الآلام الجسمية والنفسية من بواعث الشكوى الذاتية, ومنها الشكوى من المرض الجسدي والعجز والكبر , وتعد قضية الشيب والشيخوخة من القضايا التي ذكرها الشاعر, إذ صرخ بالشكوى من الكبر الذي ارتبط في ذهنه بالضعف والعجز وعدم القدرة على تحقيق الذات, فالشيخوخة مقترنة بالنهاية , وهي نذير له بالموت الذي لا مفر منه .

ويشكو (ابن التعاويذي) من المرض الذي أثقل جسده وأرق عينيه[١]:(بحر المديد)

ياصِـــحابيَ هَـــلْ أخـــو ثقـــةٍ يَسْـــمَعُ الشَّـــكوى فأوسِـــعَهُ

بـــــي مـــــالو أنّ أيسَـــــرَهُ بالقِنـــان الصُّـــلْب زَعْزَعَـــهُ[٢]

بَشِـــروني بِالصَّـــباحِ فَقَـــدْ أنْكَـــرَتْ عَينـــاي مَطْلَعَـــهُ

تمثل الشكوى ثورة النفس وبداية خروج الإنسان / الشاعر إلى المواجهة الحقيقية مع الجوانب السلبية , وما يقف في وجهه من مظاهر مؤلمة لا يملك أمامها – وقد أعيته القدرة على قهرها – إلا رفع الصوت بالشكوى للتخفيف من آلامه , وما يثقل كاهله من الأوجاع بسبب المرض , فقد أحاطه بسياج من المعاناة النفسية , فنراه ينطق بما يلفه من الاضطراب ومظاهر القلق , وقد بدأ الشاعر صيحاته بالنداء (يا صحابي) لتزيل الستار عن بنية داخلية أرادها وسيلة لمد الصوت بعيداً , فجاءت الأداة صيحة أو صرخة أطلقها يطلب النجدة مِمَّنْ يسمعه من شدة آلامه وأوجاعه , للتوكيد والمبالغة على ما يعانيه , وطول الليل الذي أثقل كاهله وأضنى جسده , ثم يحاول الشاعر أن يشرك من يسمعه في أوجاعه , إذ جاء بـ (هل) لحمل المتلقي على مشاركته انفعالاته , فهو يبين لنا أن العلل التي عنده لو وقع أيسرها على الجبل الصلب لهزه وزلزله , ثم جاء بالفعل (بشروني) الذي يضم في طياتهِ ذات الشاعر من خلال الضمير (الياء) العائد لنفسهِ, فهو يجد في الشكوى شفاءً على الرغم من أنها تدل على عدم الاستقرار , واستراحةً وتخفيفاً للثقل الذي يحس بهِ في نفسهِ , لعّلهُ يجد فيه فرجًا من حَراجةِ الصدر , تؤدي به إلى الفرج , فالليل المؤرق وهمومه وأحاديث نفسه كثيرة مزدحمة بالشكوى , فيلح بها بعد أن عجز عن إيجاد من يساعده ؛ لأنه يشكو من هموم تحرمه لذة النوم .

---

[١] الديوان / ص ٢٦٩ .

[٢] ألقنان: الجبل الصلب , القاموس المحيط / ص١٠٩٩ .

وأصيب الشاعر بنكبة العمى سنة (٥٧٩هـ) [١] وأثرت فيه تأثيراً عميقاً , وقال فيها شعراً يندب بَصَرَهُ وشبابه ويبكي حياته التي أصبحت مظلمة قاسية , يقول:- [٢]

(بحر الكامل)

أتُـــرى تعـــودُ لَنَـــا كَمَـــا سَـــلَفَتْ ليَـــالَي الأَبَـــرقيْنِ

وأُصِـــبتُ فـــي عينـــي التَّـــي كانَـــت هـــي الـــدُّنْيا بعَـــيْنِ

عَـــيْنٍ جَنْيـــتُ بنورِهـــا نـــورَ العُلُـــومِ وأيَّ عَـــيْنِ

حـــالان مسَّـــتْني الحـــوا دِثُ مِنهُمـــا بفَجيعَتْـــينِ

إظـــلامُ عَـــيْنٍ فـــي ضـــيا ءِ مشـــيب رأسٍ سَـــرْمَدَيْنِ

تتولد الشكوى من الحزن الذي يلم بالشخص من مكروه وضيق , فيبين الشاعر ذاته المتألمة من خلال الفعل (وأصبِتُ), فصارت الشكوى تتدرجُ ضمن مكونات شخصيته , فهناك أزمة أساسية يعاني منها الشاعر هي فقدانه لنعمةِ البصر , ويتمنى أن يعود له بصره ليرى النور من جديد كما هي الليالي التي تبرق (ليالي الأبرقين) ويلح الشاعر في شكواه بتكرار (عيني , بعين , عينٍ) فجعلها وسيلةً من وسائل التعبير التي جنح إليها ليضفي على شعره إيقاعاً مؤثراً معبراً عن ذاتهِ , فكانت مناسبة تكراره وما يوحي به من المعاني والدلالات , التي ترتبط ارتباطاً شديداً بالحالة النفسية العاطفية المليئة بالتعب والهموم, وهذه الشكوى الذاتية تعبير نفسي مصدره الهموم الناتجة عما يعرض للنفس البشرية في الحياة من عوارض تؤثر في سلوك الشاعر بحيث تقلقه وتحرمه من لذة الحياة

---

[١] سبط ابن التعاويذي , حياته وشعره / ص٦٥ .

[٢] الديوان / ص٤٣٥-٤٣٦ .

, فيعد الشاعر عينه التي فقدها الدنيا بحالها , ثم يعدد فضائل (نعمة البصر)التي جنى من خلالها العلوم والآداب , فيعد فجيعة فقدان البصر من اكبر الفجائع التي تصيب النفس, فالدنيا كلها في ظلام بعد فقدانها , ثم يذكر ظهور الشيب في رأسهِ وبدء مرحلة الشيخوخة , فهو يرى فيهما بداية لمرحلة الضعف الذي يفرض عليه قيوداً في السلوك , فضلاً عن ارتباط الشيب في وعيهِ بقرب الأجل , فيرى فيه نذير المنية بعد أن فني العمر ورحل الشباب , و يرى أن الشيخوخة تجربة قاسية ومرة تجرحه , ويعرف تماماً أن الأيام التي مضت لن تعود , فينتابه الضجر وضيق الصدر (إظلام عين في ضياء , مشيب رأسٍ سرمدين) لكنه يعد الماضي بؤرة الضوء التي يضيء بها أيامه الباقية (أترى تعود لنا ...) فيصف حالته بعد فقدانه البصر , ووصوله مرحلة الشيخوخة وما أصابه من ضعف وهوان مثقلة بالهموم ومحملة بالمعاناة النفسية للشيخوخة , ونلحظ وجود نبرة احتجاجية عند الشاعر في (أيّ) الاستفهامية (أيُّ عين) بالكشف عن مكامن الشعور وتجسيد الحقيقة الجوهرية المخزونة في اللاوعي والذي يظهر من خلال تفجّع الشاعر بما أصابه , فيشعر بالإحباط والذلة والعجز اللامتناهي عن تحقيق ما يريد , ليرى نفسه في ذلة وانكسار .

ويستمر (ابن التعاويذي) يشكو من العجز الذي أصابه بسبب الكبر, فقال متوجعاً بعد أن أضنى جسده المرض , وأنهكته الشيخوخة , [١]: (بحر الطويل)

لَـئِنْ سَـئِمَ الْعُـذَّال طـولَ شِـكَايَتي وَمَــلَّ حــديثِي زائــري ومُجالســي

وعَــادَ طبيبــي مِــنْ سَــقَامي آيســاً فَمَــا أنــا مِــنْ رُوحِ الْحيــاةِ بــآيسِ

يُمني الشاعر نفسه ويصبرها على ما أصابه , فالأبيات تنبض بالحزن والأسى , فأبرز ما نلحظه قوله (أنا) فهو من أقوى الشهادات الدالة على الذات التي تسلط الضوء على هوية الإنسان / الشاعر وعلى علاقته مع الآخرين حاضراً ومستقبلاً , فمهما

[١] الديوان / ص٤٨٤ .

أصاب الملل مَنْ حوله وجد طبيبه أن لا علاج له من مرضه , فهو يصبّر نفسه ويشجعها على الاستمرار في الحياة , فالتقدم في العمر محكوم بقلة النشاط وصعوبة الانتقال من مكان إلى آخر , فضلاً عن تبدل هيئة الإنسان وضعف جميع مفاصل جسمه , وما يصاحبه من قلق وكآبة مما يؤديان إلى الميل للعزلة والانطواء[١] , وعلى الرغم من كل ذلك فهو يجعل الشكوى (رغبات غير معلنة تكمن في أنها تعمل على تجاوز الواقع السيئ – الذي هو فيه – من خلال رفضه والتمرد عليه وتحقيق ما بذاته) [٢] ونلحظ تراكم هموم الشاعر حينما يلتفت إلى ذاته , فإذا به مكبل بقيود الشيخوخة يعاني أوجاعها وأسقامها الحسية والمعنوية (وعاد طبيبي من سقامي آيساً) , فلا يملك سوى إطلاق صيحات ليبوح بهمومه ويبث معاناته التي تدفع بهِ إلى الصبر والاحتساب , فهو في شكواه يعزف على وتر الحياة التي يبرهن على أن وجوده فيها جزء من مجتمعه ولا يمكن أن يكون بمعزل عنه , فكانت شكواه تنفيساً عمّا بنفسه لكبح همومه ومكابدته في مواجهة ظروف الحياة عن طريق التمسك بآمالها وأحلامها , فهو يحس أن حياته أصبحت غير منتجة , فصار يخشى على حاله (ومل حديثي زائري ومجالسي) فأطلق صيحاته عالياً يشكو , يصبّر النفس بعدم اليأس, فالشاعر يضع نفسه في منزلة سامية بسبب ما منحه (الله تعالى) من الصبر والإيمان بالقضاء والقدر, ويرى نفسه بعد الشكوى في موقع القوة (فما أنا من روح الحياة بآيس) وانه يستحق ما يطلبه من غيره من المعونة لمساعدته في مواجهة الظروف القاهرة .

الشكوى من الفقر:

تستقر الشكوى من الفقر في وعي الشاعر, مناط تركيزه , ومحور معاناته الشعورية والمحرك الأساس لقلقه , فنراه يتحدث كثيراً عن مأساته بالفقر وما يحس بهِ من هوان

---

[١] ينظر:- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام , د.عبد الإله الصائغ , الجمهورية العراقية , منشورات وزارة الثقافة والإعلام , دار الرشيد للنشر , مطابع كويت تايمز , سلسلة دراسات ٣٠٦ , ١٩٨٢م / ص١٥٨-١٥٩ .

[٢] ظاهرة الشكوى في شعر هذيل / ص١٧ .

يحول بينه وبين ما يطمح إليه من الشعور بالمساواة في مجتمع تتحقق فيه الذات عن طريق المال والقوة , فالفقر والحرمان والعوز حسب رؤية ابن التعاويذي (مجمع العيوب وهو كنز البلاء) [١] فالفروق المادية الكبيرة التي ميزت الحياة الاجتماعية , صارت في نظر الشاعر وسيلة لإطلاق صيحات الشكوى لعله يجد من يرفعه إلى المنزلة المناسبة التي تُكسِبهَ الثناء وحُسن السيرة بين الناس .

ويقول في ذلك:– [٢] (بحر المتقارب)

فـــإن كُنـــتَ تَعْـــرِفُ حـــقَّ الجَـــوَارِ وإلاَ فَحبلْـــــي عَلَـــــى غَـــــاربي

وتَغْلـــــمُ أنـــــي كثيـــــرُ العِيـــــالِ قليـــــلُ الجِرَايَـــــة والوَاجـــــبِ

ولســـــتُ علـــــى ظمئـــــي قانِعـــــاً بِـــــوْرِدِ مِـــــنَ الوشـــــلِ النَّاضـــــبِ[٣]

ولا شـــــكَّ فـــــي أنَّنـــــي هـــــاربٌ فَـــــدَبْرِ لِنفسِـــــك فـــــي كاتِـــــبِ

الفقر والجوع نصلان غاصا في نفس الشاعر , فتهيأ له انه طريدة القهر والانسحاق , فالشاعر يصف فقره وما يفعله بهِ , وذلك ناتج عن معاناتهِ الدائمة , وشعوره بالحرمان , فهو يعاني غائلة الحاجة ولا يجد ما يسد رمقه , فبدأ بأسلوب الشرط ؛ إذ وجد فيه خير وسيلة للتعبير عن أفكارهِ ومشاعرهِ ومتنفساً لانفعالاته الداخلية (فإن كنت تعرف) ثم إن تأخر جملة جواب الشرط تجعل المتلقي متشوقاً ومتلهفاً لمعرفتها (فحبلي على غاربي) وعند ذلك يتحقق التوازن عند المتلقي , فغاية الشاعر من ذلك بث أفكاره و عواطفه

---

[١] التمثيل والمحاضرة , عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ت (٤٢٩)هـ , تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو , الناشر: الدار العربية للكتاب , ط٢ , ١٤٠١هـ – ١٩٨١م / ص٣٩٥ .

[٢] الديوان / ص٤٤ .

[٣] الوشل الناضب:– الوشل: سال أو قطر , ويقال للرجل إذا ضعف واحتاج وأفتقر , القاموس المحيط / ص١٤٠١ , والناضب:– من نضب: سال وجرى / القاموس المحيط / ١٢٩٠ .

المتأججة المليئة بالتشكي من الفقر والعوز, ثم يتجه إلى توظيف القول الشائع (حبلي على غاربي) [١] إذ جعلهُ جواباً للشرط لتحقيق غايته المبتغاة في إيصال شكواه إلى مَنْ يسمعهُ , فيترك الأمور تتصرف به دون انتظام أو مسؤولية , فهذا القول كناية عن الإهمال , فالتجأ الشاعر إلى التضمين من القول المأثور وتوظيفه لتوكيد كلامه بحاجته إلى المال , إذ اعتمد (ابن التعاويذي) على التراث بصفته حلقة جوهرية مِنْ حلقات رؤاه الثقافية , فشكلت له دعامة أساسية في رسم صورته المراد إظهارها لمن يسمعه وليهرب من مأساته التي يعانيها دون حل , فهو قد عجز عن الحصول على المال له ولعياله , ويشكو ذلك لمن يسمعه مكنياً بقوله (لمن يعرف حق الجوار) فهو كثير العيال , قليل الرزق , لكنهُ ليس قانعاً بما لديه , فرزقهُ يقطر ويسيل بشكل ضعيف , كالوشل الناضب , الذي يكاد ينتهي , ثم يعود يحاكي ذاته , فهو سيهرب من واقعه الأليم , ويخاطب من يعمل عنده بأن يجد له بديلاً عنه, فيطلب منه أن يضبط رزقه بضوابط وأن يوسعه له ليكفل للجميع رزقاً وافياً لمواجهة مصاعب الحياة وظروفها القاسية , فسطوة المال وسلطانه جعل من الشاعر يعده أساساً للحياة , وإلا فهو ضائع لا قيمة له في مجتمعه , فالشاعر يشخصُ آلام عياله ليترجم مشاعره الخاصة التي تعج في صدره , ولذا فإن الشكوى (تترجم عن خواطر النفس الإنسانية فنحس زفرات حارة تشكل تلك الأنات الشاكية التي تنطلق من أفئدة محرومة مما ينتاب الإنسان/ الشاعر من هموم وأوجاع أملتها ظروف الحياة , وما يتعرض له في يومه وغده على تراب أرضه وبين أفراد مجتمعه)[٢] والشاعر لا يريد أن تنفلت الأمور ثم يحدث مالا تحمد عقباه , بتصويره المأساة التي يعانيها وتوحي لنا بها آلامه وأوجاعه .

---

[١] هناك قول شائع عند العلماء والمربين هو (لا تترك الحبل على الغارب) يقال عند ما يلين الرجل ويترك الأمر دون حل , شرح نهج البلاغة , عبد الحميد بن هبة الله بن محمد الحسين بن أبي الجديد , تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم , دار إحياء الكتب العربية , مطبعة عيسى ألبابي الحلبي / ج١١ , ص١٣ .

[٢] الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري / ص٩٨ .

ونجدُ (ابن التعاويذي) يشكو إلى الله مما هو فيه من ضنك العيش وأصحابٍ بخلاء , بخلوا عليه وقت حاجته مع قدرتهم وكثرة أموالهم وسعة حالهم , يقول[١]:-

(بحر الكامل)

يـــارَب كَيْـــفَ بَلَـــوتني بعِصـــابةً مـــا فـــيهِم فَضْـــلٌ ولا إفضـــالُ

غطّـــى الثَّـــراء علَـــى عُيُـــوبِهم وَكَـــمْ مِـــنْ سَـــوْءةٍ غطّـــى عليهـــا المـــالُ

جُبنـــاء مـــا اسْـــتنجَدتهُمْ لِمُلِمَّـــةٍ لُؤمـــاءُ مـــا اســـتَجْديتهُمُ بُخَّـــالُ

فُوجـــوهُهُمْ عُـــودٌ علـــى أمـــوالِهِمْ وأكُفُّهُـــمْ مِـــنْ دونِهـــا أقْفـــالُ

نرى صيحات الفقر والجوع تصدر من الشاعر كأنها صيحات نداء واستغاثة , فالشعر يمثل ترجماناً للنفس , وصدى للفكر , ينقل من خلاله الشاعرُ آلامه ويبث أحزانه , فيصور الواقع تصويراً مأساوياً , فدعاؤه إلى (الله) جل جلاله ليخلصه من أصحاب بخلاء , ليست لهم فضائل عليه , وأصحابه كلهم عيوب لكن كثرة أموالهم قد غطت تلك العيوب , فهم جبناء إذا استدعيتهم للمؤازرة والمساعدة , وبخلاء ولؤماء إذا طلبت منهم المال , كأن الأقفال في أيديهم كناية عن البخل , فالتصوير الكنائي يبين للقارئ تشاؤم الشاعر من أصحابه وأصدقائه , و يمنح النص خصائص تعبيرية تكسب أسلوبه دلالات جديدة قد نفتقدها في الأسلوب الصريح , فتلك النبرات الحزينة الشجية إنما هي صور ذاتية تعبر عن مأساة الشاعر الناتجة عن الفقر المدقع , يترجمها لنا في صيحات شعرية مؤثرة صادرة عن مأساة شخصية ومعاناة إنسانية , ليطلب بها من الآخرين أن يعيشوا قضيته بوعي وإدراك , ويذكر لنا أصحابه بأن واقعهم وحياتهم البخل الذي يسيرون عليه , وهو طبع فيهم وسجية لديهم , ومساوئهم كثيرة , فشر أخلاق الرجال الجبن والبخل , وكلتا

[١] الديوان / ص٣٥٦ .

الصفتين موجودة عندهم (جبناء ما استنجدتهم لملمة , لؤماء ما استجديتهم بخال) ؛ لأن البخل يهدم مباني الكرم , فهذا النص يختزل بؤس الشاعر ويشرح لنا تفاصيل حياته فهو لما أراد تحقيق المصداقية في شكواه , جعل خبر فقره معلناً بين الناس , لعله يستدر عطف احدهم , والشاعر يحاول تصعيد البنية اللغوية كلما تصاعدت حدة القلق النفسي والذهني عنده من خلال تكراره لبعض الألفاظ (ما فيهم فضل ولا أفضال) (غطى الثراء ... غطى عليها المال) (جبناء , لؤماء) (ما استنجدتهم , ما استجديتهم) فهو يروم إقامة جسر للتواصل بين عالمه الشعري من جهة , وعالمه الداخلي النفسي من جهة أخرى , لعلهُ يجد من يرفع عنه كربة الشكوى , ويخلصه من الفقر الذي أضنى جسده وأثقل كاهله , وإلا ففي الشكوى راحة عنده , فهي تخفف الهم وتزيل الألم .

ونجد (ابن التعاويذي) يشكو للسلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب)(ت٥٩٥هـ) من قلة عطاياه له , على الرغم من مدحه للسلطان في أكثر من موضع وفي ذلك يقول:- [١] (بحر الكامل)

يـا ابْـنَ الـذي خَضَـعتْ لعِـزَّة بأسـهِ مُضـطَّرَّة بـيضُ الصَّـوارمِ والقنـا[٢]

أيجُـوز أنْ أغشـى حِمَـاكَ فـأنْثَني صِـفراً يـدي ويـدَاكَ مـلأى بالثَّنـا

أو هَـلْ يليـقُ بمْثـل جُـودِك أنْ يُـرَى حرْمَـان مـن أمْسـى بشُـكْرك مُعْلنـا

مـالي غرسـتُ مـدائحِي وَسَـقْيتُها مَـاءَ الـوَلاءِ ومـا حَصَـلتُ علـى جَنـى

---

[١] الديوان / ص٤٣٩ .

[٢] بيض الصوارم: السيوف , القاموس المحيط / ص٧٣٣ , القنا: يقال أحياناً للأماكن العالية المرتفعة كالجبال , القاموس المحيط / ص١٠٩٩ .

يُظهِرُ الشاعر الشكوى – من قلة ما عنده – لعله يجد من يرأف بحاله , فهو في اشدّ حالات ضعفه المادي ويحتاج لمن يقدم له العون , فيتجه إلى السلطان يخاطبه ويسأله , بادئاً بالمدح لعله يستعطفه , فهو ابن الذي خضعت له رقاب الناس مُكنياً لذلك بـ (بيض الصوارم) أي خضع له كل من يحمل سيفاً , فضلاً عن وصول سطوة بأسه إلى أنحاء الأرض حتى الجبال العالية , كناية عن سيطرته على كل ما حوله , فالشاعر يعيش في حمى السلطان لكنه لا يجد ما يسد رمقه ويغنيه عن الحاجة (صفراً يدي) كناية عن العدم , فامتلكت الصورة الكنائية أبعاداً نفسية كان يعاني منها الشاعر , لكنه فضّل عدم التصريح المباشر ليرفع من شأن نفسه ولا يتهم بالكدية , فاستطاع بقدر قليل من الألفاظ أن يرسم صورة للسلطان يمدحه فيها , وفي الوقت نفسه يطلب منه ما يعينه على مصائب الحياة والفقر , فصارت للصورة قدرةٌ على ترجمة حالته النفسية التي تعتريه , وما دام هو يعاني الفقر وغائلة الحاجة فلا مكانة له في مجتمعهِ وبين قومه , وقد جنى عليه المجتمع عندما أهمله وجرَّده من كل شيء بسبب فقره وقلة ماله , ولا يليق بالسلطان أن يرى شخصاً – كالشاعر – الذي يشكر عطاياه دائماً أن يكون محتاجاً إلى غيره وهو موجود, فهو يصبح ويمسي شاكراً له , ويعود مذكراً بتخصيصه كل مدحه للسلطان ؛ لكنه لم يجنِ منه شيئاً , فالاستعطاف دخل ضمن الشكوى ليسمع السلطان حاجته لعطاياه , فأراد الشاعر تكوين علاقة نفعية بينه وبين السلطان , وهو يمدح , والسلطان يعطي المال ويهبه .

الشكوى من الأصحاب :

إن الشكوى من فساد الناس(الأصحاب والأصدقاء والأهل والأبناء) ناتجة عن أوضاع اجتماعية ومتغيرات في الحياة ؛ و صدى هذهِ الشكوى ومنبعها نفسي عند من فقد الأمل في صديقهِ أو أهلهِ أو من حوله , فأصيب بالإحباط النفسي الذي نلمح صداه في شعر(ابن التعاويذي) , فالشكوى عنده ترتكز على إنتاج الذات الشاعرة للقيم , عبر تمثيلها لذاتها وللآخر/ المجتمع , من خلال تشكيلها لمفردات التجربة اليومية , فالذات الشاعرة في هذه الحركة (تحاول تجاوز مرحلة الانكفاء والواقعية إلى خلق دائرة تواصلية

من الآخر / المجتمع وذلك من خلال تحركات ايجابية تهدف إلى عطف القلوب على القيم...) [١] فشكواه ذاتية انفعالية تصدر عن نفسٍ قلقة معنويًّا وعن وجدان مفعم بتقلبات زمنية , فنجده يشكو من أصحابه وأصدقائه , يقول:- [٢] (بحر البسيط)

لا بَـارَكَ اللهُ فـي قَـوْمٍ صـحبتُهُمُ فمَـا رعْـوا حُرْمتـي يومـاً ولا عرفَـوُا

ولا وَصَـفْتُ قبيحـاً مِـنْ فِعـالِهِمُ إلاّ وعِنـدهُمُ بـي فـوق مـا أصِـفُ

لأصـبرَنّ علـى إدْمَـانِ ظُلْمِهِـمُ عَسَـى الليـالي تُـواتيني فأنْتَصِـفُ

يظل (ابن التعاويذي) عازفاً على أوتار الشكوى , فيتخذها طريقاً لما أصابه من الحزن جراء ما يعانيه من سوء معاملة أصحابه (فيتجه إلى النزوع للفردية , والتغني بالذات- لأصبرن- لشعوره بالوحدة والاختلاء بالنفس , فيأنس إلى شعره الذي يعتصر هذه المآسي ليكون عوضاً عن تحقيق رغباته نوعاً ما) [٣] فهو يدعو على أصحابه لعدم رعايتهم له وإنكارهم له, فبقدر ما يصفهم بالقبح والجبن , فهم فوق ذلك الوصف وليس باستطاعته أن يصف عاداتهم السيئة المتقلبة لكثرتها , وفي هذا اللون من هذا الشكوى من ظلم القريب والأصحاب يمتزج الألم بالعتاب والتظلم بالوعيد والتهديد , والتشكي بالفخر , من خلال الإحساس بظلم القريب , وتلك نزعه إنسانية ينبغي تسجيلها بصدق للشاعر (ابن التعاويذي) فهو كان صلداً هنا ولم يضعف أمام عواطفه الذاتية التي تربطه بمن حوله , فالشاعر قد تعود ظلم أصحابه (إدمان ظلمهم) فكانت شكواه نوعاً من التنفيس عما يجتاح صدره من غلٍّ وما يحمل من ثورة تسعى لتغيير المجتمع من حوله , فالشاعر يتألم كثيراً نتيجة فقدانه لأصحابه , وهو يتحسر عليهم , فالنص كله حسره

---

[١] الشكوى في شعر ابن نباته / ص٢٢٢ .

[٢] الديوان / ص٢٩٦ .

[٣] المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية , علي علي مصطفى صبح , الناشر: تهامة , جدة , المملكة العربية السعودية , ط١ , ١٤٠١هـ-١٩٨٤م / ص٢٨٢ .

وألفاظها تدور في جوّ واحد , هو جو الوحدة والغربة والحنين لعله يجد من يسمعه (عسى الليالي تواتيني فانتصف) والشاعر وهو يشكو ويحتج ضد أصحابه , يرى نفسه في موقع القوة , وانه يستحق ما يريده وذلك واضح من خلال (ياء المتكلم) الذي يجسد ذلك الشعور وتشتغل في النص كفاعل من فواعل الذات الحجاجية (حرمتي , بي , تواتيني) فهي ليست شكوى نموذجية , إنّما ذاتية انفعالية , فشكوى الأصحاب حاله نفسية تصيب الإنسان / الشاعر في مرحلة زمنية غير مواتية , تجعله يشعر بالغربة بين أهله وذويه في مجتمع قد نشأ فيه .

ونجد نصًّا آخر (لابن التعاويذي) يشكو ويتظلم فيه من أصدقائه , ويخاطب من يسمعه بأن ينصفه , وفي ذلك يقول:- [١] (بحر الوافي)

شَـــكوْتُكَ قِلَّـــة الإنصـــاف عِلْمـــاً بأنَّـــك مِنـــهُ لـــي كرمـــاً بـــديلُ

لِتحفظ مـن عُهُودي مـا أضـاع الصّديقُ ومـــــا تناســـــاهُ الخليـــــلُ

وإن قطعـــــوا حبَـــــالهُمُ جفـــــاءً فأنْـــتَ المُحسْـــنُ البـــرُّ الوَصُـــولُ

إنّ ظلم الأقارب والأصحاب أشدُّ ما يؤلم القلب , وأشدُّ على النفسِ من وقع السيف القاطع وأكثر تأثيراً في تهيج نار الحزن والغضب , ونحن نحس بالشكوى التي يتخذها سبيلاً لإظهار معاناته , وربما أدّت إلى الفرج , ففي الشكوى تفريج لهموم تثقل كاهل الشاعر وصدره , فالشكوى عند الشاعر وسيلة من وسائل التعزي , فهو يحس بالوحدة جراء ترك أصحابه له , فيطلب من كل سامع أن يحفظ عهود صداقته , فكلهم قد تناسوا مواثيقه وعهوده , وقطعوا حبل المودة والوصال معه , (لأن الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها , فإن لم ينص منها شيء باللسان , ولم يشرح إلى الشكوى لم يلبث أن يهلك

[١] الديوان / ص٣٤٣ .

غماً ويموت أسفاً) [١] فتتجلى فيما يبثه (الشاعر) إلى الآخرين من المعاناة , وهي تعكس خوف الشاكي من وجود الخلل في حياته الاجتماعية بترك أصحابه له , وما يطرأ على علاقاته معهم, وهذا كله وليد الظلم الاجتماعي والحرمان من الخلان (ما أضاع الصديق) و (ما تناساه الخليل) فيشعره بالحيف وعدم الوفاء , فهي صرخة تعبير عن العواطف المحرومة , ومظهر للاضطراب النفسي , والتشاؤم الذاتي , فضلاً عن رغبات معلنة عن إقامة علاقات مع آخرين دون أصحابه (لتحفظ من عهودي) و (فأنت المحسن) لعله يتجاوز واقعه السيئ المرير نحو تحقيق علاقات اجتماعية أفضل مع غيرهم . كما يظهر لنا من خلال قوله (شكوتك) فإن شكواه ذاتية أكثر من كونها اجتماعية عامة , وتصدر من فؤاد مكلوم بالهموم , وزفرات حارة تنطلق من صدر مجروح , وما تعرض له من هجران أحبائه وأصدقائه , و المتاعب والمشكلات التي يعانيها من ضياع العهود والمواثيق وصلات المودة التي كانت تجمعهم ,و نجد نوعاً من العتاب ممزوجاً مع الشكوى (وإن قطعوا حبالهم جفاء) فهو يتحسس آلامه وما آل إليه حاله من تحرق وأسى ومرارة لما هو عليه من إهمال , فينفجر سخطاً وغضباً على ما يشعر به , مع أنه لم ينسَ عهداً قطعهُ على نفسهِ , فيلقي بآهات وحسرات باكية حزينة , قد تجد من يحس بها ويلقي لها بالاً .

ونجد في شعره , التشكي من الأبناء والأولاد, يقول:- [٢] (بحر المنسرح)

أرضِـــي قَـــدْ أجَـــدَبت ولـــيس لِمـــنْ أجْـــدَبَ يوْمـــاً سِـــوَاك مُنْتَجَـــعُ

ولـــــي عيـــــالٌ لا دَرّ درَّهُـــــمُ قـــد أكلُـــوني دَهْـــرِي ومـــا شـــبعوا

ولـــو وَسَـــموني وَسْـــمَ العبِيـــد ويـــا عُـــوني بسُـــوقِ الأعـــرابِ مـــاقنِعوُا

---

[١] طوق الحمامة في الألفة والآلاف , أبو محمد علي بن احمد بن حزم الأندلسي ت (٤٥٦)هـ , المؤسسة العربية للدراسات والنشر , ط٢ , ١٩٨٧ / ص١٦٤ .

[٢] الديوان / ص٢٧٢-٢٧٣ .

إذا رأوْنـــــي ذَا ثـــــروَةٍ جَلســـــوا حَـــوْلي ومـــالوا إلـــىّ واجْتَمَعـــوا

وطالمـــا قطعُـــوا حبـــالي إعراضـــاً إذا لـــم يكُـــنْ معـــي قِطـــعُ

يمشـــون حَـــوْلي شـــتَّى كـــأنهم عقـــاربٌ كُلَّمـــا سَـــعوا لَسَـــعوا

نَقَلْـــتُ رســـمي جَهْـــلاً إلـــى ولـــدٍ لَسْـــتُ بِهِـــمْ مـــا حييـــتُ أنْتَفِـــعُ

تُلقي الشكوى بظلالها على ملامح القصيدة ومفاصلها , فتتصاعد وتيرة الفواجع التي ألمت بالشاعر , فيصور لنا نفسه وهو يعيش في دوامة الفقر التي لا تنتهي , فهو غير راضٍ عن عياله , فرزقه قليل وهم لا يشبعون (أرضي قد أجدبت) كناية عن قلة موارد رزقه حتى انه يصف نفسه بالعبد الذي يباع وعيالُهُ مجتمعون حوله عند كثرة ماله , لكنهم يقطعون حبل المودة بينهم وبينه إذا لم يجدوا عنده ما ينفعهم (إذا لم يكن معي قطع) ويعود ليشبههم بالعقارب في صورة تشبيهيه للدلالة على الغدر لنقل التجربة إلى المتلقي , فجاء بالصورة التشبيهية (كأنهم عقارب) ليشرك صورتين في سمات متقاربة فرسم صورة تشبيهية محسوسة أقرب إلى الفهم , لتحفيز المشاعر واستثارة الحواس وتنشيط ملكة الخيال عند السامع , حتى يتبين لهم شدة ما يعانيه من ظلم عياله له , مستخدماً الأداة (الكاف) لتقريب الصورة لدى المتلقي , فشكلت صورته التشبيهية صورة كلية – عن أولاده – قامت أركانها على الوصف الحسي والمبالغة , فضلاً عن توظيفه الجناس في أكثر من موضع (درهم – دهري) (سعوا , لسعوا) الذي يؤدي وظيفتين مزدوجتين , إيقاعية من ناحية الشكل , ومعنوية بالانسجام بين المعاني , فيضفي على النص بُعداً إيقاعيا ذا تأثير على المتلقي بالتجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات , فأدراك الشاعر أن إتيانه بالألفاظ المتجانسة يثري النص بمعانٍ عدة يتعزز بها المعنى العام للقصيدة , فيسهم في إنتاج المعنى الشعري الذي يريد إظهاره لمن

يسمعه بظلم عياله له , كما نجده يكرر بعض الألفاظ (أجدبت , اجدب) , (در , درهم) , (وسموني , وسم) , (قطعوا , قطع) ليعبر عن تجربته المريرة مع أولاده , فبالألفاظ المكررة سلط الشاعر الضوء على نقطة حساسة في نصه تكشف اهتمامه بها , فصار التكرار مفتاحاً لفهم القصيدة وتأكيداً لكلام الشاعر مما يؤدي إلى علوق المعنى في نفس المتلقي , هذا فضلاً عن دوره الإيقاعي الذي يسهم في إغناء النص بموسيقى داخلية منسجمة (لإظهار جزء من الهندسة العاطفية للعبارة تسهم في تنظيم الكلمات على أساس عاطفي نفسي , ليرسخ وظيفة الإبلاغ والتذكير) [١] فقد وصف الشاعر أبناءه بأقبح الصفات وأبشعها لما لاقاه منهم من ظلم وتجاهل ونسيان وعقوق , فلم يزل يلقى منهم مالا يسره حتى أواخر حياته (لست بهم ما حييتُ أنتفعُ) إذ تدفقت عواطفه بحرارةٍ مصورة آلامه النفسية ومجسدة نهايته التي يراها – على يد أولاده – وشيكة ليعبر عن تلك التجربة وما يصاحبها من أحاسيس مريرة عاشها بكل جزئياتها , بتكراره لياء المتكلم (ارضي , أكلوني , دهري , وسموني , باعوني , رأوني , حولي , حبالي , حولي , رسمي) مما يدلنا على بقائه وحيداً لملاقاة ظروف الحياة ومصاعبها التي تأتيه من أقرب الناس وهم(عياله) , كما إن الحركة الفعلية الموجودة في بعض أفعال النص مترابطة مع (ياء) المتكلم فتظهر لنا الاضطراب النفسي الذي كان يعانيه الشاعر المتأتية من ظلم الأهل والأقارب.

الشكوى من الغربة:

إن ذات الشاعر تتسم بالحساسية المفرطة و تأنس بالاجتماع , وتنفر من الفرقة , وتألف رفقة الصديق والقريب والأهل والحبيبة , ولا تروم مفارقتهم , ومن خلال استقرائنا لشعر (ابن التعاويذي) نستنبط شعوره بالغربة من تفرق الأصحاب والرفقاء , والأهل عنه في بعض الأحيان , وإحساسه هذا نابع من الداخل الملتهب بنار الشوق والحنين , ويدخل ضمن هذا الإحساس الشكوى من الغربة والترحال والتنقل وفراق الأهل والأحبة .

[١] قضايا الشعر المعاصر , نازك الملائكة , دار العلم للملايين , بيروت , ط٥ , ١٩٧٨م / ص٢٤٣ .

يقول (ابن التعاويذي) مازجاً الشكوى بالعتاب وهو يخاطب أهل مدينته عندما نوى الرحيل عنهم إلى بلاد أخرى , يقول:- [١] (بحر المتقارب)

أترْضَـــون يـــا أهْـــلَ بَغْـــداذ لـــي وَعَـــنْكُم حـــدِيثُ النّـــدى يُســـنَدُ

بـــأني أرْحَـــلُ عَـــنْ أرْضـــكُمْ أجُـــوبُ الـــبلَادَ وأسْـــتَرفِدُ

ألا رجـــــلٌ مِـــــنكُمُ واحِـــــدٌ يُحرّكُـــــهُ المَجْـــدُ والسُّـــؤدُ

وأرْحَـــلُ عَـــنكُمْ إلـــى بَلْـــدَةٍ بِهَـــا فـــي الشَّـــدائِدِ مـــن يزْفِـــدُ

إلـــى بلـــدةٍ لا تقـــومُ الخُطُـــو بُ بِـــالحُرّ فيهـــا ولا تقعـــدُ

يُســـــالِمُ أيّامَهَـــــا أهْلُهـــــا فَسَـــيْفُ الخُطُـــوب بهـــا مُغْمـــدُ

يشكو (ابن التعاويذي) ضائقته وقلة مساعدته من أهل بلدته (بغداد) مبيناً لهم أنه راحل عنهم , لكنهُ لا يتحدث عن الغربة بوصفها هجرة من مكان إلى آخر بل المفهوم العام الشمولي لها , وخاصة ما يتصل بالغربة النفسية الشديدة , فيتجه إلى إظهار الشكوى لعلها تخفف آلامه , فيلجأ إلى التنفيسِ عمّا بداخلهِ فهو يعرض الأمر عليهم قبل أن يشكو الرحيل والاغتراب , فأهل بغداد لا يرضون أن يرحل شاعر زمانهم عنهم إلى بلاد أخرى لا يعرف عنها شيئاً , فيدعو كل من يسمعه أن تحمله النخوة ويمنعه من الرحيل , فهو يشكو الغربة والحنين إلى بلاده حتى قبل أن يفارقها ويرحل عنها , فهو حتماً سيجد بلداً يعامله أهله معاملة طيبة ويرفعون من قدره ويعلون من شأنه , لكنه غير راغب بذلك ما دام له وطن و أهل , وفيه أناسٌ يحبهم (أترضون ... لي) , فسياق الشكوى جيء به على وجه التوجه استعطافاً للسامع (أترضون , ارحل عنكم , ألا رجل

[١] الديوان / ١٣٩ – ١٤٠ .

منكم) وفي هذا النوع من الشكوى الكثير من الجوانب الإنسانية التي تحكم علاقاته مع الآخرين , والشاعر يعتقد أنّ لشخصه تأثير عميق في إخوانه وأصدقائه من أهل بغداد بسبب منزلته الاجتماعية والأدبية وربما لوفائه لهم والتزامه بالقيم الأخلاقية , فنجده يناجيهم (ألا رجل منكم) بأن يخلصوه أو يمنعوه من الرحيل إلى بلاد الغربة , فهو لن يطيقها لمرارتها وصعوبتها حتى وإن كان في بلاد أحسن من بلاده , فهو يجد في الشكوى راحة للنفس , وتنفيساً عما يحويه صدره من ألم خوفاً من الغربة , فشكواه ناتجة عن يقظة شعورية حادة فرضها الموقف فرضاً , وأملتها الحادثة عليه إملاءً لما يمتاز به النص من صدق وواقعية وعمق في معاناته وما يحويه من عرضٍ للمشاهد الاجتماعية ؛ لأن الشاعر تحدث فيهِ عن ذاتهِ , وعبر عن مواقفه ومشاعره الخاصة التي تركت تجاربه للغربة أثراً حاداً في نفسه , فأخرجها للناس في دفقات شعرية مؤثرة فيها المعاني الكبيرة والتصوير الحي , فضلاً عن أن الشاعر يؤكد رحيله عن بلاده لتكراره لفظة (ارحل) مرتين من خلال النص مما يؤكد إصراره على الالتجاء إلى الغربة ومفارقته لوطنه وتحمّله شدة المعيشة التي يستوحش فيها الغربة ولا يطمئن لها ويشق عليه الابتعاد عن أهله , فلا يجد له صاحباً ولا مؤنساً ولا صديقاً .

ونراه يتشوق إلى بلاده وأهله بعد أن عانى وطأة الغربة والانتقال بعيداً عنهم , يقول:ـ[1] (بحر البسيط)

إلام أكـــتُمُ فضْـــلاً لـــيسَ يَنْكَـــتمُ وَكـــمْ أذودُ القـــوافي وهـــي تَـــزدْحِمُ

وكـــم أُدَاري اللَّيـــالي وهـــي عاتبـــةٌ وكـــم تُعـــبِّسُ أيَّـــامي وأبْتَســـمُ

فبِـتُّ أشـكو رسـيسَ الشَّـوْقِ تُظهِرُنـي الشَّكوى وَيستُرُني عَنْ طيفهاَ السَّقمُ

[1] الديوان / ص٣٩١ – ٣٩٢ .

تثير تركيبة النص دلالات تناسب الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر ساعة إنشاده وهو بعيد عن أهله وبلاده وأصدقائه , فيعرض همومه الناتجة عن المشكلات الحياتية التي تواجهه في الغربة فقد هلع الشاعر من الغربة ووحشتها واشتاق إلى أهله , فشكلت الغربة والحنين مظهراً آخر من مظاهر الحزن لديه , فكانت معاناة تضاف إلى معاناته المتعددة التي حكت أزمته مع الواقع ومع البيئة , فيصبّرُ نفسه على ليالي الغربة وشدّة الأيام (كم أداري الليالي وهي عاتبةٌ) و (وكم تعبس أيامي) مشيراً إلى ذاته المتألمة عبر (ياء المتكلم) ؛ لكنه يُظهر تلك الشكوى علّه يجدُ من يسمعهُ فيزيح الهمَّ عن نفسه أو تزيل الشكوى عنه الأمراض التي يعانيها , تلك الأمراض النفسية الناتجة عن تشوقه إلى بلادهِ وأهلهِ , فهو مع غربته يحسُ بالمرض والعلل التي تحيطه من كل جانب فقد طالت الغربة واشتد الشوق (فبت أشكو رسيس الشوق) فقد تحجّم بوحشة الغربة ولذلك يُظهر الشوق , لعّل الشكوى تطفئ نار الشوق والحنين ويتبين لنا أن هذه الشكوى النفسية الأليمة تفصح عن حسرة وألم دفين في نفس الشاعر الذي اشتكى من طول بقائه بعيداً عن بلاده , فكانت شكواه نابعةً من نفسٍ متعبةٍ ومثقلة بالهموم , وما عرض لها من المصائب , فعليه أن يوطّن نفسه على تحملها ليصبح في مواجهة مصاعب الحياة وغربتها , فنجده يئن بالشكوى لعدم تحمله الفراق .

ونجد لديه الشكوى من فراق المرأة , وإنّ كان هذا النوع قليلاً في شعرهِ , يقول:– [1] (بحر الكامل)

يَـــــا مَـــــنْ يُهـــــزُّ قوامَـــــهُ سُـــــكْرُ الشَّـــــبابِ فينتشـــــي

أرْحَـــــمْ فَـــــدَيتك مَـــــنْ لَـــــهُ جَسَـــــدٌ بِحُبِّـــــك قَـــــدْ ضـــــني

القلـــــبُ رهـــــنٌ فـــــي يديـــــ ـــــك وقـــــد مَلَكْـــــتَ فأحِســـــنِ

[1] الديوان / ص٤٤٢ – ٤٤٣ .

مـــــــالي شَـــــــرَيتُكَ غاليـــــــاً وَزَهِـــــــدْتَ فـــــــيَّ فَبِعْتَنَـــــــي

أطمعتنـــــــــــي حتّـــــــــــى إذا عَلِـــــقَ الفُـــــؤادُ هجرتنـــــــي

ورغبـــــت فـــــي وصـــــلي فحيـــــ ـــــنَ رَغِبْـــــتُ فِيـــــك مللتنـــــي

الشكوى في هذا النص شكوى معتمة متمثلة بالحزن المغلَّف باليأس الذي يجتاح روح الشاعر وهو يعيش القهر الطبيعي والاجتماعي ويعاني من الحرمان , ويبدو أن هذا الموقف الضاج بالآلام والأحزان جراء فراق المرأة عائد إلى يأس الشاعر من وصالها , فلا حدود لحزنه ويأسه , فحديثه على سبيل الشكوى من صدّها وبُعدِها بعد الدنو والاقتراب , فيحس بمرارة هجرانها عقب الوِصال الذي كان بينهما , ونلمس ذلك بقوله (فبعتني , هجرتني , مللتني) وهي ألفاظ دالة على مرارة الفراق , وفي الوقت نفسه يدعو إلى اللقاء , فاظهر شكواه للتلذذ بالصبر على ما تفعله به – وهي بنظرة المرأة المثالية – فدائماً يتذكر طيفها وخيالها لا تفارقه , فيطلق نداءً بعيداً لعلها تسمعه فيرق قلبها (يا من يهزُّ قوامها) فقد بلي جسدهُ جراء هجرها له (جسد بحبك قد ضني), فشكواه من الفراق مستمرة طالما قلبه ينبض , ويؤلمه فتأخذه الرغبة في العودة واللقاء , فالوصل يتحول إلى هجران وملل (ورغبت في وصلي فحين رغبت فيك مللتني) والمحبة تتحول إلى بُعد وفراق مُكنياً بقوله (مالي شريتك...) فهو يكاد يتنفس الصعداء شوقاً إليها ومحبةً فيها , فيطلب منها أن تكف عن هجرانهِ , فمهما صنع الفِراق وباعد بينهما فلا يكف الشاعر من دعوتها إلى اللقاء , إذ كانت أيامه معمورةٌ فيها , مسرورة بلقائها , فهجرانها ليس له صبرٌ عليه وشوقه يكاد يكونُ لزاماً عليه , وداء الحنين إلى اللقاء والشوق لها ليس له دواء إلا اللقاء والتقرب , فنارُ الغربة والحنين تلهب جسده وقلبه أسىً ومرارة , وقد قابل الشاعر هنا بين حقلين معجميين , هما حقل الشكوى وحقل العتاب , سعياً لإبراز ذاته :-

العتاب	الشكوى
أرحم	جسد ضني بحبك
القلب رهنٌ في يديك	ملكت فأحسن
شريتك غالياً	بعتني
أطمعتني	هجرتني
رغبت في وصلي	مللتني

الشكوى من السلطان:

مِنْ أسبابِ الشكوى في عصرِ الشاعر , التصرف المتشدد مِنْ بعضِ الولاة , وما بدر منهم من حيف وجور, وظلم للرعية , فقد انبرى (ابن التعاويذي) يشكو من بعض ولاة الأمور و من السلاطين ليتداركوا أخطاءَهم, فهم مسؤولون عن الرعية , فتتعالى صيحاته طالباً الإصلاح والإنصاف , ونراه تارةً يشكو صراحةً , وتارةً يشكو ولا يصرح بالأسماءِ خوفاً من العقاب , وتارةً يمزج العتاب بالشكوى تمهيداً للإصلاح الذي يطلبه فغايته الأساس استتباب العدل والحق بين الناس ومحاسبة من يخرج عليهما , فنجد (ابن التعاويذي) يشكو ويعاتب الوزير(عضد الدين)[١]ويطلب منه الاستزادة في الرزق, يقول:- [٢] (بحر المتقارب)

أيـــا عَضُـــدَ الـــدّين شـــكوى فتـــىً علـــى دَهْـــرِهِ واجـــدٍ عاتـــبِ

يَمُـــتُّ إليـــك بمـــا لا يَمُـــتُّ بِـــهِ الْيـــومَ مَـــوْلًى إلـــى صـــاحِبِ

لـــهُ مـــدحٌ فيـــك مشـــهورةٌ تدلُّ على حقـــــــهِ الواجبِ

[١] هو عضد الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن المسلمة , قتل عام (٥٧٣)هـ , سير أعلام النبلاء , شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان الذهبي ت (٧٤٨)هـ , مجموعة من المحققين بأشراف الشيخ شعيب الارناؤوط , الناشر: مؤسسة الرسالة , ط٣ , ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م , ج:٢١ / ص٨٤ .
[٢] الديوان / ص٤٣ .

يحسُ الشاعر بالمرارةِ وبالظلمِ جراء نقص مصادر رزقه فيتجهُ إلى الشكوى للوزير صراحةً (أيا عضُد الدين) ليعكس لنا طابع حياته السيئة التي يعيشها , فضج بالشكوى رافعاً صوته , فالأيام قد عسرت حياته , مذكراً الوزير بمدائحه له , لعّله يدر عليه ما يكفيه من المال , والشاعر بحاجة إلى عطايا الوزير أكثر من حاجة العبد إلى سيده (بما لا يمت به اليوم مولى إلى صاحبِ) فقد صور الشاعر نفسه يعيش في دوامة الدهر , وهو غير راضٍ عن ذلك , فيحاول لفت نظر الوزير لعلهُ يسمعه وينجيه مما هو فيه , ونرى في هذا النص حرية يتمتع بها الشاعر دون خوف أو وجل , فهو يخاطب وزيراً ولا يخشى من الشكوى أمامه , بل يرفع صوته بالشكوى الصارخة مطالباً بالاستزادة والحصول على حقوقه , والشاعر يحس ويدرك أن الوزير ربما يسمع شكواه فينجده , فكنى الشاعر عن قلة عطايا الوزير بالدهر , فهو لم يملك الجرأة الكاملة على التصريح بقلة عطايا (عضد الدين) له بل عزا الأمر إلى الدهر , وفي الوقتِ نفسه خصص اسم الوزير في البداية ليعرفه انه المقصود ليس غيره .

ونجد نصاً آخر للشاعر يشكو فيه الظلم والحيف الذي وقع عليه من احد الولاة , دون التصريح باسمه خوفاً من العقاب الذب سيقع عليه , وفي ذلك يقول:- [١] (بحر المتقارب)

ألا مُنصِـــفٌ لـــي مـــن ظـــالمٍ تملكنـــي جَـــوْرُهُ واســـتَرقْ

وأصـــبَحْتُ مُرتزِقـــاً راحَتَيْـــهِ وبَـــئِسْ المعيشَـــةُ والمرْتَـــزَقْ

قليـــلُ الصَّـــوابِ إذا مـــا ارتـــأى بـــذيُّ اللِسـانِ إذا مـــا نَطَـــقْ

كَثيـــرُ التَّحيُّـــفِ فـــي ظُلْمِـــهِ إذا أخَـــذَ اللَّحـــم يومـــاً عَـــرَقْ

[١] الديوان / ص٣٠٢ – ٣٠٣ .

ولـــو كـــان يقـــدر مِـــنْ لؤمِـــهِ حمـــى الطّيـــر أن يســـتظِلَّ الـــورقْ

ولـــيس لـــهُ مِـــنْ سَـــجَايا الملُـــو كِ غيـــرُ اللجَّـــاج وسُـــوءِ الخُلُـــقْ

لجأ الشاعر لاستخدام الألفاظ الدالة على الإيذاء والتجني , سعياً لإبراز معاناته وتوجع ذاته , فالشكاية تقوم لأن الشاكي لحقه الإيذاء , فقرن حقل الإيذاء بالتجني , فالتأذي الذي حصل له صارت جناية عليه , تُنبئ عما يكابده الشاعر من البلوى , وما يصيبه من الظلم والجور , موجهاً الشكوى إلى كل والٍ يسئ استعمال منصبه الذي شغله , فالشاعر يبتغي الإنصاف من الحيف والظلم الواقع عليه والجور الذي ملأ أركان حياته , فهو يشكو من قلة عطايا السلطان , ويشكو بذاءة لسانه , فقد تسلط ظلمه على الرعية , ومن شدة لؤمه منع الطير من الوقوفِ على الشجرِ , وهذا تصوير كنائي عن شدة تسلط السلطان على رعيتهِ , فليس له خصلة من خصال الملك , فكل صفاته مكروهة , كثير الكلام , سيء الأخلاق , وأمام هذا الذل والقهر يشكو الشاعر من وضعه المؤلم ويدعو قومه بالوقوف بوجه التسلط والاستبداد , وعند ذلك رفع صوته عالياً ليقيم الثورة ضد السلطان والوالي الجائر , ومن الملاحظ في هذا الشعر الشاكي أنهُ قاسٍ في لهجتهِ , عنيف في هجومه , مؤلم في تجريحه , بتوظيفه الألفاظ (ظالم , جائر , قليل الصواب , بذيء اللسان , كثير التحيّف) فهو يعد بمثابة الرقابة الصارمة على المفسدين , فكانت صيحتهُ صدىً لتلك الحالات الخاطئة ضمن أركان الإدارة , كما أن هذه الصيحات من ظلم الوالي لم تأتِ من فراغ , إنّما جاءت نتيجة السخط والظلم المنتشر , فكانت شكواهُ نقداً اجتماعيًّا وصرخات استغاثة , فالشكوى لم تكن وصفية , إنما جاءت نابعة من واقع الحال الذي يعيشه , وهذا النوع من الشكوى تكمن وراءه عوامل نفسية وسلوكية تؤدي إلى ارتفاع مستوى القلق خوفاً من الواقع الاجتماعي , فهو يشعر بأن العالم الخارجي المحيط به منحدر نحو الانهيار بسبب السياسات الخاطئة التي يتبعها السلطان . ومن الملاحظ تكرار استخدام الشاعر لأدوات الشرط (إذا) لأكثر من مرة (إذا ما ارتأى , إذا ما نطق , إذا اخذ) ليبني عملية التلاحم العضوي بين أركان نصه , ويلصق تلك الصفات لمن

يقصده , فهي المتنفس لانفعالاته واضطرابه , فيسخر الشاعر اللغة ليبني بها إستراتيجية خاصة خدمة لتحقيق شاعريته وبيان طاقاته الكبرى في التصرف باللغة لصالحه فاستعمال (إذا) الشرطية دون غيرها من أدوات الشرط ينبئ عن كثرة ورود فعل الشرط وتحققه, فأدخل الشرط لغرض التوكيد , كما عمد الشاعر إلى تقنية التقديم والتأخير في بناء جمله الشعرية , إذ قدم جواب الشرط على جملة الشرط في قوله (قليل الصواب إذا ما ارتأى) والأصل (إذا ما ارتأى فهو قليل الصواب) وكذلك في قوله (بذيء اللسان إذا ما نطق) والأصل (إذا ما نطق فهو بذيء اللسان) ليحقق لنفسه غرضًا نفسيًّا ودلاليًّا , ويقوم بوظيفة جمالية فنية فبالتقديم والتأخير يحرك الشاعر النفوس ويؤثر فيها لاستجلاء المعنى المراد وإيصاله وتوضيحه للمتلقي, إذ أن أي تغيير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغيير في الدلالة وانتقالها من مستوى إلى آخر , فأراد الشاعر لمن حوله أن يعرفوا ذلك قبل أن يدخلوا دائرته المليئة بالمآسي والأوجاع .

ويعود (ابن التعاويذي) يشكو ظلم السلطان الواقع عليه مباشرةً , فيقول في ذلك:- [1] (بحر الخفيف)

مَـنْ مُجيـري ومَـنْ يُجيـرُ علـى ذي جبـروتٍ تخشـى المُلـوكُ سُـطاهُ

ظـالِمٌ إن مدحتُـهُ لـمْ أنـلْ خيـ ـراً وإن لَـمْ أمْدَحْـهُ خِفْـتُ أذاهُ

فهـو لا يشـتري المـديح ولا يسـ ـمح أنّـي أبيعـهُ مـن سـواهُ

ليتـهُ تـاركي كفافـاً فـلا أرْ جـوُهُ فـي حالـةٍ ولا أخْشـاهُ

يعتصرُ قلبُ الشاعرِ ألماً و يغوصُ في بحار الأسى والحزن وقد لا نبالغ إذا قلنا إن حياة الشاعر تسودها المنغصات التي تكدر صفوها وتجعلها نكدة , فقد سادها

[1] الديوان / ص ٤٧٧ .

نوع من القطيعة مع الحاكم , لجبروته وطغيانه وظلمه , فهو لم يعد يسمح للشاعر بأن ينظم المديح إلا لنفسهِ وبرغم ذلك فهو قليل العطاء له , فيتمنى الشاعر أن يتركه وشأنه , ليعيش بعيداً عن التسلط والعدوان , فهو يطلب العيش كفافاً , لا لهُ ولا عليه , فقد اغتصبت حقوقه وأُستعبد لصالح السلطان (ليته تاركي) مما حدا به أن يلهج بالشكوى متسائلاً عن مصيره المجهول (من مُجيري) فقد تحول هذا الظلم إلى أكبر وأشمل عندما منعه السلطان أن ينظم المديح في غيره (ولا يسمح أني أبيعهُ من سواه) فهو يشكو عدوان حاكمه وظلمه وتحامله عليه , شكوى تفيض ألماً وحزناً عميقاً , وإساءة واضحة , ومع ذلك يقف الشاعر موقفاً عاقلاً فيه حلم وأناة , وصبر على الأذى , ليتهُ يتخلص من الذل والهوان , لعلهُ يستطيع إصلاح الأمور, ويحافظ على كرامته قدر المستطاع , بالرغم من الاضطهاد وسوء المعاملة , ويتبين لنا في هذا النوع من الشكوى العاطفة المتأججة المتألمة والشعور الحزين الذي يفصح عنه الشاعر في شكواه حينما يرى نفسه مظلوماً من حاكمه , فالعلاقة بين (الأنا / الشاعر) و (المخاطب / الحاكم / المقصود) محكومة بعدم التكافؤ , ليؤكد الشاعر المقاطعة التي تلقاها من حاكمه الظالم (فهو لا يشتري ...., ليتهُ تاركي...) .

نلحظُ مِنْ خلال استقراء المنجز الشعري لـ (ابن التعاويذي) استحضار الأبعاد النفسية لولادة التجربة الشعرية الناجحة , ليدنو من الإبداع الفني ويتمكن منه , والذي نتج عن الإحساس النفسي الإنساني الصادق , حاملاً معهُ شكواه ومعاناته , كما نلمس التلاقي الإبداعي بين التجربة الشعرية والمعاناة النفسية الناتجة عن تجاربهِ الحياتية , مما يؤدي بنا إلى قراءة منجز شعري مليء بالتأثير الفني في المتلقي , كما يتبين لنا أن شكواه ذاتية انفعالية , ونفسر بروز (الأنا) عند الشاعر في شكواه برؤيته لمنزلته الأدبية السامية , ونتيجة لذلك فقد أصبحت الشكوى من مكونات شخصية الشاعر .

AL – shaqua in sibt Ibn AL-taweethys poetry

*Lect. Dr.Faris Yaseen Mohammed**

Abstract

The research talks about a phenomenon which is widely spread in Ibn AL-Taaweethy"s poetry namely (comlaint).we consider this kind of poetry as an emotional poetry.It shows us the poet's sufferiny from his life .we cancentrate on the most important pivots of his complaint specially the complaint of time,illness,poverty, friends inner and external alienation and authority.His complaint is centered on his inner feeling which is caused by the circumstances of life which is aqainst his wills.By complaint he's seeking after hope.

The most important thing distingnishing the passion in Ibn AL-Taaweethy"s complaint poetr"s its honesty because it comes from a soul full of sadness,admonition and yearning ,hopping that he may find who help him .